الجزء الثالث

obeikandl.com

obeikandl.com

الآفة الخامسة عشرة

سوء الظن

والآفة الخامسة عشرة التى يبتلى بها نفر من العاملين ، وتصيبهم ، وتصيب العمل الإسلامى بآثار مهلكة ، وعواقب وخيمة ، إنما هى : « سوء الظن » .

وحتى يتخلص من هذه الآفة من ابتلوا بها ، ويتجنبها من سلمهم الله منها ، فإننا سنتناولها من الجوانب التالية :

أولا : تعريف سوء الظن :

يطلق الظن **لغة** على معان عدة نذكر منها :

أ ـ الشك، تقول : بئر ظنون : لا يدرى أفيها ماء أم لا ؟ ومنه قوله تعالى : ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾ [الحج] .

ب ـ التهمة، تقول: أظنَّ به الناسَ ، تعنى : عرَّضه لتهمتهم ، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الأحزاب]، ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢] .

جـ ـ الحسبان أو العلم بغير يقين، تقول: ظننت الشمس طالعة أى حسبتها أو علمتها علمًا غير يقينى، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنبياء] ، ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ [الحشر : ٢] ، ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ ﴾

[النجم : ٢٨]

د ـ اليقين، تقول: ظنَّ فلان الشيءَ بمعنى تيقنه،ومنه قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة] ، ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ

حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحاقة]، ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ ﴾ [المطففين][1] .

ولا تعارض بين هذه المعانى جميعًا إذ هى تصوير لمراتب الظن من بدايته إلى نهايته، وكأن الظن: إنما هو تخمين أو هاجس أو خاطر يقع فى النفس لأمارات تظهر ، وقرائن تبدو ، فإذا قويت ، وتأكدت هذه الأمارات وتلك القرائن أثمرت علمًا يقينًا أو تصديقًا قطعيًا ، وإذا ضعفت أو تلاشت لم تثمر إلا مجرد الشك أو التوهم ، أو العلم الغير يقينى .

والسوء لغة يطلق على معنيين :

الأول : أن السوء هو كل ما يقبح، أو ما يقابل الحسن، قال تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام] ، ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ ﴾ [الأعراف: ٩٥] ، ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ [الرعد : ٦] .

الآخر : أن السوء هو كل ما يغم الإنسان من أمور الدارين سواء أكان فى نفسه أم فى غيره [2] .

ولا تعارض بين المعنيين ، إذ القبيح أو الشر يعود على النفس بالهم والغم، والقلق والاضطراب النفسى كما قال سبحانه : ﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الجن] ، ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه : ١٢٤] .

وإذ قد عرفنا معنى « الظن » ومعنى « السوء » كل على حدة فإننا نقول : إن سوء الظن هو تخريص أو تخمين ينتهى بوصف الغير بما يسوءه ويغمه من كل قبيح من غير دليل ولا برهان .

ثانيًا : مظاهر سوء الظن ، ووضعه فى ميزان الإسلام :

ولسوء الظن مظاهر عدة ، وأمارات كثيرة تدل عليه ، نذكر منها :

---

(١) انظر : بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادى ٣/ ٥٤٥ ـ ٥٤٧، والمعجم الوسيط ٢/ ٥٩٩ بتصرف كثير .

(٢) انظر : بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادى ٣/ ٢٨٨، ٢٨٩، والمعجم الوسيط ٢/ ٥٩٩ بتصرف كثير .

١ ـ القعود عن نصرة دين الله ـ عز وجل ـ فى الغير أو فى النفس وفى الغير معًا بدعوى أننا أهل الله وأولياؤه ، وقد عملنا طويلا وتعبنا كثيرًا وما حصلنا من وراء ذلك نصرة على أعدائنا ، بل على العكس كانت الشدائد والامتحانات شدة بعد شدة ، وامتحانًا بعد امتحان ، كما حكى الله ـ عز وجل ـ عن نفر من الناس يوم أحد : ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾ [آل عمران : ١٥٤] ، أو بدعوى أن ذنوبنا كثيرة لن تغفر، ولا يمكن أن تغفر .

٢ ـ الولوغ فى المعاصى والسيئات بدعوى أن الله لا يرى ، ولا يعلم ، كما قال سبحانه : ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) ﴾ [فصلت] ، أو بدعوى أنه لا بعث، ولا حساب كما قال سبحانه : ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) ﴾ [الجن] ، ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾ [الكهف] ، ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِى وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّى إِنَّ لِى عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ﴾ [فصلت : ٥٠] .

٣ ـ توقع هلاك المؤمنين ، واستئصال شأفتهم أمام كثرة العدو عددًا وعتادًا مع تقدم هذا العدو ونبوغه ، كما قال سبحانه عن المنافقين وموقفهم من المؤمنين يوم الحديبية : ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) ﴾ [الفتح : ١٢] .

٤ ـ الرجاء أو الخوف من الخلق ظنًا أنهم يعطون ويمنعون ، ينفعون ويضرون .

٥ ـ التقصير فى عمل من أعمال البر المعروفة ، مثل عيادة المريض ، وتشييع الجنائز، ورد السلام ، وإجابة الدعوة ، وبذل النصيحة ، وتشميت العاطس ، ومساعدة ذوى الحاجة ، وإماطة الأذى عن الطريق ، والتزاور ونحوها ؛ لأسباب خارجة عن الإرادة ، مثل السفر أو المرض ، أو القيام بواجب أكبر ، أو عدم العلم ، أو غير ذلك، فيظن سيئ الظن أن هذا التقصير نشأ من التكبر والاستعلاء أو من الاحتقار وعدم الاهتمام ، أو من البخل والشح ، وهكذا .

٦ ـ القيام بأعمال البر المعروفة من : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصدقات، وإرشاد الناس وتعليمهم والإصلاح بين المتخاصمين ونحوها ، فيظن سيئ الظن أنه إنما يفعل ذلك رياءً أو شهرةً أو طمعًا فى مغنم. والحقيقة أن البار ما كان يفعل ذلك إلا لأنه المعروف الذى دعانا الله إليه ، وحذرنا من تضييعه والتفريط أو التقصير فيه .

ولقد حكى لنا القرآن الكريم ما كان يصنعه المنافقون مع المتصدقين من المسلمين؛ إذ كانوا يقولون : إنهم يصنعون ما يصنعون للرياء والشهرة ، فأنزل الله فيهم قوله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) ﴾ [التوبة] .

٧ ـ إتْقان السعى المعاشى من تجارة أو صناعة أو زراعة ونحوها ، امتثالا لما أمر الله ـ عز وجل ـ به من السعى والضرب فى الأرض فى قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) ﴾ [الملك]، ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة: ١٠]، فيظن سيئ الظن أن هذا تكالب، وتهافت وحب للدنيا وبغض للآخرة .

٨ ـ إتقان الشعائر التعبدية من صلاة وزكاة وصيام وحج، وقراءة للقرآن، وذكر ، ودعاء، واستغفار ونحو ذلك، فيظن سيئ الظن أن هذه رهبانية وعزلة أو انقطاع للعبادة وترك للحياة الدنيا .

٩ ـ الحرص على الحياة فى الوقت الذى يقتضى الحرص على الحياة، والإقدام على الموت فى الوقت الذى يقتضى الإقدام على الموت، كما أمر الإسلام بذلك ، فيظن سيئ الظن أن هذا جبن وأن ذاك تهور، إلى غير ذلك من المظاهر الدالة على سوء الظن.

ولقد حرم الإسلام سوء الظن بالله وبرسوله وبالمؤمنين المعروفين بصلاح الحال واستقامة الخلق ، ونظافة السيرة ، وإن وقع منهم تقصير فى معروف أو تجاوز لمباح أو خدش لمروءة ، وأمر بتدارك هذا التقصير ، أو هذا التجاوز والخدش عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر دون أن يتغير قلب المسلم على أخيه المسلم قيد شعرة ، ولو للحظة واحدة، إذ يقول سبحانه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (١١٦)﴾ [الأنعام]، ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [يونس: ٣٦] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات : ١٢] .

وإذ يقول الرسول ﷺ : « إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث »[١] ، « يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى »[٢] ، « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى »[٣] ، « . . . ورأيت رجلا من أمتى قائمًا على شفير جهنم يرعد كما ترعد السعفة فى يوم عاصف ، فجاءه رجاؤه فى الله ـ عز وجل ـ فاستنقذه من ذلك ومضى »[٤] .

وأوجب سوء الظن بكافر معلن بكفره وعداوته لله ولرسوله وللمؤمنين، وإن وقع منه معروف أو عمل من أعمال البر ؛ لأنه إذا كان قد أنكر وجود الله أو وحدانيته ، وخان نعمه التى تغمره من أعلاه إلى أدناه ، فكيف يفى لنا ، ويصدق معنا ، وصدق

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب الأدب : باب ما ينهى عن التحاسد ، والتدابر، وباب: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ﴾ ٨/ ٢٣، ومسلم فى: الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم الظن، والتجسس . . . إلخ ٤/ ١٩٨٥، ١٩٨٦، رقم (٢٥٦٣)، وأبو داود فى: السنن: كتاب الأدب: باب فى الظن ٤/ ٢٨٠ رقم (٤٩١٧)، كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعًا، هذا وللحديث تخريج أوسع فى كتابنا : (غاية البيان فى شرح مختارات من السنن] ١/ ٦٧ فليراجعه من أراد .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب التوحيد: باب قول الله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾، وباب قول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ ، وباب ذكر النبى ﷺ وروايته عن ربه ٩/ ١٤٨، ١٧٧، ١٩٢، ومسلم فى: الصحيح: كتاب الذكر : باب الحث على ذكر الله تعالى ، وباب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى ٤/ ٢٠٦١، ٢٠٦٧ رقم (٢٦٧٥) ، وكتاب التوبة : باب فى الحض على التوبة والفرح بها ٤/ ٢١٠٢ رقم (٢٦٧٥) ، والترمذى فى : السنن : كتاب الزهد : باب ما جاء فى حسن الظن بالله ٤/ ٥١٤ رقم (٢٣٨٨)، وكتاب الدعوات : باب فى حسن الظن بالله ـ عز وجل ٥/ ٥٤٢ رقم (٣٦٠٣)،وابن ماجه فى:السنن:كتاب الأدب:باب فضل العمل ٢/ ١٢٥٥، ١٢٥٦ رقم (٣٨٢٢)، والدارمى فى : السنن: كتاب الرقاق: باب حسن الظن بالله ٢/ ٧٦٠، ٧٦١ رقم (٢٦٣١) ، وأحمد فى : المسند ٢/ ٢٥١ ، ٣١٥ ، ٣٩١ ، ٤١٣ ، ٤٤٥ ، ٤٨٠ ، ٤٨٢ ، ٥١٦ ، ٥١٧، ٥٢٤، ٥٣٤، ٥٣٥، ٥٣٩ ، ٣/ ٢١٠ ، ٢٧٧ ، ٤٩١ ، ٤/ ١٠٦ ، كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعًا إلا الدارمى ورواية عن أحمد، فإنه عندهما من حديث واثلة ابن الأسقع، وإلا رواية عند البخارى، وأحمد من حديث أنس بن مالك ﷺ، وعقب الترمذى على حديثه بقوله: « هذا حديث حسن صحيح » .

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها : باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت ٤/ ٢٢٠٥ ، ٢٢٠٦ رقم (٢٨٧٧) ، وأبو داود فى : السنن : كتاب الجنائز : باب ما يستحب من حسن الظن بالله عند الموت ٣/ ١٨٩ رقم (٣١١٣)، وابن ماجه فى: السنن: كتاب الزهد: باب التوكل واليقين ٢/ ١٣٩٥ رقم (٤١٦٧)، وأحمد فى المسند ٣/ ٢٩٣، ٣٢٥، ٣٣٠، ٣٩٠، ٣٩١، كلهم من حديث جابر بن عبد الله ﷺ مرفوعًا .

(٤) الحديث جزء من حديث أورده الحافظ ابن القيم فى : الوابل الصيب من الكلم الطيب ، والحافظ بدر الدين العينى فى : عمدة القارى شرح صحيح البخارى ٢٢/ ٩٢، وعزواه إلى أبى موسى المدينى قائلين : « قال أبو موسى : هذا حديث حسن جدًا » .

الله العليم بالنفوس وخفاياها إذ يقول : ﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُم ﴾ [التوبة: ٨]، ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) ﴾ [آل عمران] ، ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ [آل عمران: ١١٩] .

وكذلك وجوب سوء الظن بمسلم عرف عنه المجاهرة بالمعصية ، والصد عن سبيل الله، وعدم الالتزام بالإسلام ؛ لجواز أن يكون أداة فى أيدى الكافرين لتنفيذ مخططاتهم ومؤامراتهم على الإسلام والمسلمين ، كما يشهد بذلك الواقع اليوم ، ويكون سوء الظن بهؤلاء حينئذ من باب الحذر والحيطة ؛ اتقاء لشرهم، وإبطالا لكيدهم ومؤامراتهم .

إذ كان من هديه ﷺ حين يدخل عليه الغريب من الناس أن يحذره ويحترس منه من غير أن يطوى عنه بشره ولا خلقه .

وهكذا يدور سوء الظن بين الحرمة والوجوب ، وأما الأحاديث التى وردت فى الدعوة إلى سوء الظن بإطلاق فإنها ضعيفة ولا تصح مثل : « من حسن ظنه بالناس كثرت ندامته »[١]، « الحزم سوء الظن »[٢]، « احترسوا من الناس بسوء الظن »[٣].

ثالثًا : أسباب سوء الظن :

ويوقع فى سوء الظن أسباب كثيرة ، وبواعث عدة ، نذكر منها :

١ ـ سوء النية وخبث الطوية :

كأن ينشأ الإنسان تنشئة غير صالحة فيقع كثيرًا فى المعاصى والسيئات حتى تورثه تلك المعاصى وهذه السيئات سوء الظن بمن ليس أهلا له ، ويصبح ذلك مظهرًا من مظاهر سوء النية وخبث الطوية ، كما قال سبحانه وتعالى :

(١ - ٣) انظر فى ضعف هذه الأحاديث : سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ فى الأمة للألبانى ١/ ١٨٦، ١٨٧، ٣/ ٢٩١ ـ ٢٩٣ وإن كان قد عزا الحديث الثالث : « احترسوا من الناس بسوء الظن » إلى ابن سعد فى : الطبقات الكبرى على أنه من أقوال الحسن البصرى ، ثم عقب عليه بقوله : « وسنده صحيح » .

وحاول رده من حيث المتن بأنه مخالف للأحاديث الكثيرة الصحيحة التى وردت بإحسان الظن بالمسلمين ، والتى منها : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث » ، ولا نوافقه على هذا التعليل الأخير ، لأنه يمكن الجمع بين الأحاديث الكثيرة الدالة على وجوب تحسين الظن بالمسلمين وبين هذا الكلام المأثور عن الحسن البصرى الدال على وجوب الاحتراس من الناس بسوء الظن ، يمكن الجمع بأن الأول محمول على المسلم المعروف بالصلاح والتقوى ، وحسن الخلق ، ونظافة السيرة ، والآخر محمول على الكافر أو على مسلم معروف بحربه لله ولرسوله ، أو على مجهول الهوية أهو مسلم أو كافر ؟ على النحو الذى شرحنا فى موقف الإسلام من سوء الظن ، والله أعلم .

﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الفتح] ، ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الفتح] ، ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] ، ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [يونس : ٣٦]، ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الأحزاب] .

٢ ـ عدم التنشئة على المبدأ الصحيح فى الحكم على الأشياء والأشخاص:

ذلك أن المبدأ الصحيح فى الحكم على الأشياء والأشخاص إنما يتمثل فى:

أ ـ النظر إلى الظاهر وترك السرائر إلى الله ، فهو وحده المطلع عليها العليم بكل ما فيها ، فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع منه ، فمن قضيت له من حق أخيه بشىء فلا يأخذ منه شيئًا ، فإنما أقطع له قطعة من النار » (١) .

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : بعثنا رسول الله ﷺ فى سرية فصبحنا الحرقات من جهينة ، فأدركت رجلا فقال : لا إله إلا الله ، فطعنته فوقع فى نفسى من ذلك ،

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب المظالم والغصب : باب إثم من خاصم فى باطل وهو يعلمه ٣/ ١٧١، ١٧٢، وكتاب الشهادات : باب من أقام البينة بعد اليمين ٣/ ٢٣٥ ، ٢٣٦ وكتاب الحيل : باب منه ٩/ ٣٢ ، وكتاب الأحكام : باب موعظة الإمام للخصوم ، وباب من قضى له بحق أخيه فلا يأخذه ، وباب القضاء فى كثير المال وقليله ٩/ ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الأقضية : باب الحكم بالظاهر ، واللحن بالحجة ٣ / ١٣٣٧، ١٣٣٨ رقم (١٧١٣) ، وأبو داود فى : السنن : كتاب الأقضية: باب فى قضاء القاضى إذا أخطأ ٣/ ٣٠١، ٣٠٢ رقم (٣٥٨٣، ٣٥٨٤)، والترمذى فى : السنن : كتاب الأحكام : باب ما جاء فى التشديد على من يقضى له بشىء ليس له أن يأخذه ٣/ ٦٢٤ رقم (١٣٣٩)، والنسائى فى: السنن الكبرى: كتاب القضاء: باب الحكم بالظاهر، وباب ما يقطع القضاء ٣/ ٤٧٢، ٤٨٢، رقم (٥٩٥٦، ٥٩٨٥) ، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الأحكام : باب قضية الحاكم لا تحل حرامًا ولا تحرم حلالا ٢/ ٧٧٧ رقم (٢٣١٧، ٢٣١٨) ، ومالك فى : الموطأ : كتاب الأقضية ، باب الترغيب فى القضاء بالحق ص ٥٠٩ رقم (١٣٩٧)، وأحمد فى : المسند ٦/ ٢٠٣، ٢٩٠، ٢٩١، ٣٠٨، ٣٢٠، كلهم من حديث أم سلمة رضي الله عنها مرفوعًا ، واللفظ للبخارى ، وزاد ابن ماجه رواية أخرى من حديث أبى هريرة، وعقب عليها البوصيرى فى: مصباح الزجاجة فى زوائد ابن ماجه ٣/ ٤٤ قائلا : « هذا إسناد صحيح ، وله شاهد من حديث أم سلمة ، رواه الستة ، ورجاله رجال الصحيح » وعقب الترمذى على حديثه قائلا : « حديث أم سلمة حديث حسن صحيح » .

فذكرته للنبى ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «أقال لا إله إلا الله، فقتلته؟» قال: قلت: يا رسول الله، إنما قالها خوفًا من السلاح، قال: « أفلا شققت عن قلبه ، حتى تعلم أقالها أم لا » فما زال يكررها علىَّ حتى تمنيت أنى أسلمت يومئذ . . . الحديث(١) .

ب ـ والاعتماد على الدليل أو البرهان قال تعالى : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) ﴾ [البقرة] ، ﴿ لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ [النور : ١٣] .

جـ ـ والتأكد من صحة هذا الدليل أو ذلك البرهان ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [النساء : ٩٤] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) ﴾ [الحجرات] .

د ـ وأخيرًا عدم معارضة الأدلة ، أو البراهين لبعضها البعض ، هذا هو المبدأ الصحيح فى الحكم على الأشياء والأشخاص ، ومن يربى على غير هذا المبدأ فإن أموره وأحكامه كلها تبنى على الظنون والأوهام التى قد تصيب مرة وتخطئ مائة مرة ومرة ، ولقد أشار القرآن إلى هذا السبب وهو يناقش المشركين فى دعواهم أن وقوعهم فى الشرك من الله ، قائلين : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٤٨] ، فرد عليهم سبحانه بقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ (١٤٨) ﴾ [الأنعام] .

٣ ـ البيئة قريبة كانت أو بعيدة :

وقد ينشأ المرء فى بيئة معروفة بسوء الخلق ، ومنه سوء الظن ، سواء أكانت هذه البيئة قريبة ـ ونعنى بها البيت ـ أم بعيدة ـ ونعنى بها الأصدقاء ـ فيتأثر بها ، ولا سيما إذا كان فى مرحلة الحضانة أو البناء والتكوين ، ولما يصلب عوده ويحصن بعد ضد هذه الأخلاقيات وتلك السلوكيات ، وحينئذ يصاب بسوء الظن .

ولقد بين النبى ﷺ أثر البيئة على الإنسان عندما قال : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء » ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه : ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب المغازى : باب بعث النبى ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة ٥/ ١٨٣، وكتاب الديات : باب قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ ٩/ ٤، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال : لا إله إلا الله ١/ ٩٦ ـ ٩٨ رقم (٩٦، ٩٧)، وأبو داود فى : السنن : كتاب الجهاد : باب على ما يقاتل المشركون ٣/ ٤٤، ٤٥ رقم (٢٦٤٣) ، وأحمد فى : المسند ٥/ ٢٠٠ ، كلهم من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه مرفوعًا ، واللفظ للبخارى .

تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّم ﴾ [الروم : ٣٠] (١) « إنما مثل الجليس الصالح ، وجليس السوء ، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحًا منتنة » (٢) .

٤ ـ اتباع الهوى :

ذلك أن الإنسان إذا اتبع هواه حتى صار هذا الهوى إلهه الذى يعبده من دون الله، فإنه يقع لا محالة فى الظنون الكاذبة التى لا دليل عليها ولا حجة، ولا برهان ؛ نظرًا لأن حب الشىء يعمى ويصم ، كما أن البغض يستوجب التماس العثرات ، وتصيد الأخطاء ، فمثلا إذا مال الإنسان بهواه إلى آخر فإن هذا الميل ينسيه أخطاءه ويحمله على تحسين الظن به ، وإن كان مخطئًا فى الواقع ، ونفس الأمر ، وإذا أبغض الإنسان آخر لأنه لا يميل إليه بهواه ، ولم يكن هذا الإنسان منصفًا ، فإن هذا البغض يحمل على سوء الظن ، وما يتبعه من التماس العثرات وتصيد الأخطاء وإن كان مصيبًا فى الواقع ونفس الأمر ، من باب :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... وعين السخط تبدى المساويا

وقد لفت الحق تبارك وتعالى الأنظار إلى هذا السبب حين قال :

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُس ﴾ [النجم : ٢٣] ، ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [القصص] ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجاثية] .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الجنائز: باب إذا أسلم الصبى فمات، هل نصلى عليه؟ وباب ما قيل فى أولاد المشركين ٢ / ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، وكتاب التفسير ، سورة : ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ ﴾ ، باب : ﴿ لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ : لدين الله ٦/ ١٤٣، وكتاب القدر: باب الله أعلم بما كانوا عاملين ٨/ ١٥٣، ومسلم فى : الصحيح : كتاب القدر: باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ٤/ ٢٠٤٧ رقم (٢٦٥٨)، ومالك فى: الموطأ: كتاب الجنائز : باب جامع الجنائز ص ١٦٠ رقم (٥٧١)، وأحمد فى : المسند ٢/ ٢٣٣، ٢٥٣، ٢٧٥، ٢٨٢، ٣١٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٩٣، ٤١٠، ٤٨١، كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعًا ، واللفظ للبخارى ، وعقب الترمذى على حديثه قائلا : « هذا حديث حسن صحيح » ، وله شاهد عند أحمد ٣/ ٤٣٥، ٤/ ٢٤ من حديث الأسود بن سريع .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب البيوع : باب فى العطار وبيع المسك ٣/ ٨٢، ومسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب استحباب مجالسة الصالحين ، ومجانبة قرناء السوء ٤/ ٢٠٢٦ رقم (٢٦٢٨) بلفظه ، كلاهما من حديث أبى هريرة ﷺ مرفوعًا .

٥ ـ الوقوع فى الشبهات :

وقد يكون الوقوع فى الشبهات عن قصد ، أو عن غير قصد ، بل وعدم تبرير الوقوع فى هذه الشبهات إن كانت عن غير قصد ، أو غير تعمد من الأسباب التى تغرى الآخرين أن يقعوا فى سوء الظن ، ولعل هذا بعض أسرار تأكيدهﷺ على البعد عن الشبهات إذ يقول :

« الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله فى أرضه محارمه »[(١)] ، « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة »[(٢)] .

بل وضربهﷺ المثل من نفسه لنقتدى به ونتأسى فى البعد عن كل شبهة ، إذ تقول السيدة صفية بنت حيى أم المؤمنين رضي الله عنها : كان النبىﷺ معتكفًا فأتيته أزوره ليلا ، فحدثته ، ثم قمت لأنقلب فقام معى ليقلبنى ـ وكان مسكنها فى دار أسامة بن زيد ـ فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبى أسرعا، فقال النبىﷺ : «على رسلكما، إنها

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح :كتاب الإيمان : باب فضل من استبرأ لدينه ١/ ٢٠ ، وكتاب البيوع : باب الحلال بين والحرام بين ٢/ ٧٢٣، ٧٢٤ رقم (١٩٤٦)، ومسلم فى : الصحيح : كتاب المساقاة : باب أخذ الحلال وترك الشبهات ٣/ ١٢١٩ ـ ١٢٢١ رقم (١٥٩٩) ، وأبو داود فى : السنن : كتاب البيوع : باب فى اجتناب الشبهات ٣/ ٢٤٣ رقم (٣٣٢٩)، والترمذى فى : السنن : كتاب البيوع: باب ما جاء فى ترك الشبهات ٣/ ٥١١ رقم (١٢٠٥)، والنسائى فى : السنن الكبرى : كتاب البيوع : باب اجتناب الشبهات فى الكسب ٤/ ٣ رقم (٦٠٤٠) ، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الفتن : باب الوقوف عند الشبهات ٢/ ١٣١٨، ١٣١٩ رقم (٣٩٨٤)، والدارمى فى : السنن : كتاب البيوع : باب فى الحلال بين ، والحرام بين ٢/ ٦٩٥ رقم (٢٤٣٦)، وأحمد فى : المسند ٤/ ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٥ كلهم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه مرفوعًا ، واللفظ للبخارى .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح (معلقًا] : كتاب البيوع : باب تفسير المشبهات ٣/ ٧٠، والترمذى فى : السنن : كتاب صفة القيامة : باب منه ٤/ ٥٧٦، ٥٧٧ (٢٥١٨) من حديث الحسن بن على قال: حفظت من رسول اللهﷺ : « دع ما يريبك . . . »الحديث، وعقب عليه بقوله : « وهذا حديث حسن صحيح » ، والدارمى فى : السنن : كتاب البيوع : باب دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ٢/ ٦٩٥، ٦٩٦ رقم (٢٤٣٧) من حديث الحسن بن على، وأحمد فى : المسند ٣/ ١٥٣ من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه مرفوعًا ، والنسائى فى : السنن : كتاب الأشربة : باب الحث على ترك الشبهات ٨/ ٣٢٧، ٣٢٨ رقم (٥٧١١) من حديث الحسين بن على .

صفية بنت حيى » فقالا: سبحان الله يا رسول الله ، قال : « إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شرًا ـ أو قال : شيئًا »(١) .

٦ ـ عدم مراعاة آداب الإسلام فى التناجى :

ذلك أن الإسلام أدبنا : أنه إن كان ولا بد من التناجى لصلاح الحياة واستقامة الحال ، فإن هناك آدابًا يلزم مراعاتها وهذه الآداب هى :

أ ـ حرمة انفراد اثنين فما فوقهما بالنجوى دون الآخر حتى يوجد معه من يناجيه أو يختلط الجميع بالناس ، إذ يقول ﷺ : « إذا كنتم ثلاثة ، فلا يتناجى اثنان دون الآخر ، حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه » (٢) .

ويدخل فى هذا الأدب : حرمة تناجى اثنين فما فوقهما دون الجماعة بلسان غير لسان الجماعة ، لاتحاد العلة ، وللمشابهة المتمثلة فى الإحزان والإغضاب .

ب ـ وأن تكون النجوى فى الطاعة والمعروف ، لا فى المعصية والمنكر ، إذ يقول سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾

[المجادلة]

جـ ـ وأن تكون النجوى فى أمر مهم لا يتم ولا يبرم إلا بعيدًا عن أعين المرجفين، والمفسدين فى الأرض .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى الصحيح : كتاب الأدب : باب التكبير والتسبيح عند التعجب ٨ / ٦٠ ، وأبو داود فى السنن : كتاب الصوم : باب المعتكف يدخل البيت لحاجة ٢/ ٣٣٣ رقم (٢٤٧٠)، وابن ماجه فى : السنن : كتاب الصيام : باب فى المعتكف يزوره أهله فى المسجد ١/ ٥٦٦ رقم (١٧٧٩) ، وأحمد فى : المسند ٦/ ٣٣٧، كلهم من حديث صفية بنت حيى ﵂ به .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الاستئذان : باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمساواة والمناجاة ٨/ ٨٠، ومسلم فى : الصحيح : كتاب السلام : باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه ٤/ ١٧١٧، ١٧١٨ رقم (٢١٨٣، ٢١٨٤)، وأبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فى التناجى ٤/ ٢٦٣ رقم (٤٨٥١) ، والترمذى فى : السنن : كتاب الأدب : باب ما جاء لا يتناجى اثنان دون ثالث ٥/ ١١٧ رقم (٢٨٢٥) : وعقب عليه بقوله : « هذا حديث صحيح » ، والدارمى فى : السنن : كتاب الاستئذان : باب لا يتناجى اثنان دون صاحبهما ٢/ ٢٨٢، ومالك فى : الموطأ : كتاب الكلام : باب ما جاء فى مناجاة اثنين دون واحد ص ٧٠٠ رقم (١٨١٢)، وأحمد فى: المسند ١/ ٣٧٥، ٤٢٥، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٤٠، ٤٦٠، ٤٦٢، ٤٦٤، ٤٦٥، ٢/ ٩، ١٨، ٣٢، ٤٣، ٤٥، ٦٠، ٦٢، ٧٣، ٧٩، ١٢١، ١٢٣، ١٢٦، ١٤١، ١٤٦، كلهم من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعًا .

تلكم هى آداب الإسلام فى التناجى ، ومن يهملها أو لا يلتزم بها يمكن أن يفتح الطريق على نفسه لتتسرب إليها الظنون والأوهام الكاذبة التى لا دليل عليها ، ولا برهان .

٧ ـ الوقوع فى المعاصى والسيئات ولا سيما مع المجاهرة أو الإعلان :

فقد يقع الإنسان فى المعاصى والسيئات وتصل به الحال إلى أن يجاهر أو يعلن بها، وحينئذ يفتح الباب أمام الآخرين ليظنوا به سوءًا ؛ نظرًا لأنه خان نعمة الله عليه، ولم يقابلها بالعرفان والشكر، وإنما قابلها بالجحود والنكران، فكان أجدر أن يخافه الناس وأن يظنوا به سوءًا أو شرًا .

ولهذا وغيره دعا الإسلام إلى الإسرار بالمعصية إن كان ولا بد من اقترافها فقال ﷺ: « كل أمتى معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله ، فيقول : يا فلان ، عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه » (١) .

٨ ـ نسيان الحاضر النظيف والوقوف مع الماضى الدنس :

فقد يفتتح الإنسان حياته بالوقوع فى الرجس والدنس من المعاصى والسيئات ، ثم يتوب الله عز وجل عليه فيقلع عن هذه المعاصى ، وتلك السيئات ، ويواظب على المعروف من البر والطاعات .

ويأتى من ينسى أن قلوب العباد جميعًا بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء ، ويأخذ فى تقييم هذا الصنف ـ الذى عصى ثم تاب الله عليه فتاب ـ من خلال ماضيه السيئ ، وليس من خلال حاضره النظيف ، وحينئذ يجد الشيطان مدخلا يدخل منه لتحريك الظنون الكاذبة والأوهام الباطلة التى لا دليل عليها، ولا برهان، ويعمل على تنميتها، حتى تصير خلقًا يتحرك به صاحبه بين الناس .

ولقد علمنا الله فى كتابه وعلى لسان نبيه محمد ﷺ أنه سبحانه يتجاوز عن العبد ما دام قد تاب وصحت التوبة ، إذ يقول سبحانه : ﴿ **وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ**

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأدب : باب ستر المؤمن على نفسه ٨/ ٢٤، ومسلم فى : الصحيح : كتاب الزهد : باب النهى عن هتك الإنسان ستر نفسه ٤/ ٢٢٩١ رقم (٢٩٩٠) كلاهما من حديث أبى هريرة مرفوعًا .

الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) ﴾ [الفرقان] .

وإذ يقول ﷺ لعمرو بن العاص وقد جاء يبايعه وأراد أن يشترط فى البيعة مغفرة ما مضى من ذنوبه ، يقول له : « أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله » (١) .

وعن ابن عباس : أن ناسًا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا النبى ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو لحسن، ولو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) ﴾ [الفرقان] ، ونزل : ﴿ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ (٢) [الزمر : ٥٣] .

٩ ـ الغفلة أو نسيان الآثار المترتبة على سوء الظن :

وأخيرًا فإن الغفلة أو نسيان الآثار المترتبة على سوء الظن قد تكون من بين الأسباب التى تؤدى إلى التردى فى هذه الآفة ، إذ الإنسان إذا غفل أو نسى عاقبة شىء تردى فيه، وإن كان فيه حتفه وهلاكه، قال تعالى: ﴿ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) ﴾ [الفرقان] .

رابعًا : آثار سوء الظن :

ولسوء الظن آثار ضارة ، وعواقب خطيرة يصطلى بنارها الفرد ، وتصطلى بنارها الجماعة ودونك طرفًا من هذه الآثار وتلك العواقب :

أ ـ على الفرد :

فمن آثار وعواقب سوء الظن على الفرد :

١ ـ الوقوع فى المعاصى والسيئات :

فقد يؤدى سوء الظن بصاحبه حين يريد أن يتحقق أو يتأكد من صحة ما ظن ، أن يقع فى سلسلة طويلة من المعاصى والسيئات ، تسلم كل واحدة إلى التى تليها ، مثل :

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب كون الإسلام يهدم ما قبله ، وكذا الهجرة والحج ١/ ١١٢، ١١٣ رقم (١٢١) من حديث عمرو بن العاص مرفوعًا بهذا اللفظ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى : الصحيح : كتاب الإيمان : باب كون الإسلام يهدم ما قبله ، وكذا الهجرة والحج ١/ ١١٣ رقم (١٢٢) من حديث ابن عباس مرفوعًا بهذا اللفظ .

التجسس أو التحسس ، الغيبة ، النميمة ، التحاسد ، التباغض ، التدابر ، التقاطع ، الفرقة ، وهلم جرًا .

وقد لفت القرآن الكريم والسنة النبوية النظر إلى هذا الأثر وهذه العاقبة حين ذكرا سلاسل المعاصى والسيئات مقترنة بسوء الظن فى قوله سبحانه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ** (١٢) ﴾ [الحجرات] ، وفى قوله ﷺ : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تحسسوا » (١) .

٢ ـ القعود عن أعمال البر والطاعات فضلا عن القلق والاضطراب النفسى :

إذ الوقوع فى سلاسل المعاصى والسيئات التى ذكرنا تكون سببًا فى سواد القلب فيمرض فيقسو أو يموت فَيُقْفَلُ ، وَيُخْتَمُ عَلَيه فيكون القعود عن الطاعات وأعمال البر، فضلا عن القلق والاضطراب النفسى وصدق الله العظيم : ﴿ **وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ** ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً** ﴾ [المائدة: ١٣] .

ويتأكد القلق والاضطراب النفسى من جانب آخر ، وهو أن سيئ الظن يوجه كل ظنونه إلى ما يحمى به نفسه وعرضه وماله، وعشيرته، فتراه يتوهم أن الناس يتآمرون عليه لقتله أو هتك عرضه أو سلب ماله أو أنهم يحتقرونه، ولا يلقون له بالا ولا يقيمون له وزنًا، ومن ثم يحيا قلقًا من داخله، لا ينعم بأمن ولا باطمئنان نفسى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا**﴾ [طه : ١٢٤] ، ﴿ **وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا** (١٧) ﴾ [الجن] .

٣ ـ الحسرة والندامة :

فقد ينتهى سوء الظن بصاحبه بعد البحث ومحاولة التحقق أو التأكد إلى عكس ما توهم ، وهنا تكون الحسرة والندامة إن كانت لا تزال هناك بقية من خير فى الفطرة .

وعلى سبيل المثال لا الحصر : نجد أن الذين ظنوا بأم المؤمنين عائشة وصفوان بن المعطل رضي الله عنهما ظن السوء ، من أمثال حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وغيرهما ، أصابتهم الحسرة وعمتهم الندامة لما نزلت البراءة لعائشة من السماء ، وتمنوا لو أنهم لم يكونوا ولدوا حتى هذا اليوم ، بل لقد ظلت الحسرة والندامة شبحًا مخيفًا يلاحقهم فى كل مكان حتى لقوا ربهم .

---

(١) الحديث سبق تخريجه ص ١٣ .

٤ ـ كراهية الناس ونفورهم من أصحاب الظن السيئ :

ذلك أن الناس حين يعرفون عن واحد من الناس أنه سيئ الظن ، وأن ظنونه هذه تنتهى إلى مجرد اتهام لا دليل عليه ولا برهان ، ينفرون منه ويكرهونه أشد الكراهية ، سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وماذا جنى المرء إذا كرهه الناس ، ونفروا منه ، والإنسان مدنى بطبعه ، كما أنه قليل بنفسه كثير بإخوانه .

٥ ـ تضييع العمر فيما لا يفيد :

ذلك أن سيئ الظن يظل طول حياته يجرى وراء هذه الظنون بغية التحقق والتأكد من صحتها، وغالبًا ما تكون كاذبة،فيكون قد ضيع عمره بددًا،وحتى لو كانت صادقة فقد اطلع على ما يؤذى ويؤلم ويبقى خاسرًا فى الحالين.

٦ ـ التعرض للغضب والسخط الإلهى :

وفوق ما قدمنا فإن سوء الظن وما يترتب عليه من أعمال تؤكده أو تبطله يكون سببًا فى التعرض للغضب والسخط الإلهى ، ومن يطيق غضب الله وسخطه وهو سبحانه يقول : ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ ﴾ [طه] .

ب ـ على الجماعة :

ومن آثار وعواقب سوء الظن على الجماعة :

١ ـ الفرقة وتمزيق الصف :

ذلك أن شيوع سوء الظن يؤدى إلى أن يتراشق الناس بالتهم ، ثم يسحبوا الثقة من بعضهم فيتباغضون، ويتدابرون، ويتقاطعون، الأمر الذى يؤدى إلى ذهاب ريحنا ونسلنا فى مواجهة العدو،وذلك هو العذاب العظيم الذى حذرنا الله من أسبابه فقال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [آل عمران] .

٢ ـ طول الطريق مع كثرة التكاليف :

وكذلك إذا جثم العدو على صدرنا بسبب الفرقة التى هى من آثار سوء الظن ، فإن التكاليف تكثر، والطريق تطول، إذ ليس من السهل أن يخلى العدو لنا طريقنا،وإنما يحتاج إلى جهاد ومجاهدة وصبر ومصابرة ومثابرة ومرابطة حتى يزحزح ويزاح من

طريق الناس، وليلة تحت قيادة العدو تحتاج منا إلى تكاليف وتضحيات لسنة ، لمحو آثار الشر التى غرسها فى هذه الليلة وصدق الله : ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الممتحنة] .

وحتى يدرك القارئ خطورة هذه الآثار نضع بين يديه نماذج أخرى غير ما قدمنا:

ـ كان أحد الموظفين فى بعض المؤسسات الخاصة قد طلب من صاحب المؤسسة قرضًا لفرش وتجهيز سكناه ، وحدد مقدار القرض الذى يريد ، وإذا بصاحب المؤسسة يوافق على ثلاثة أثمان ما طلب فقط وأصر على ألا يزيد ، فى الوقت الذى يمنح من هم دونه منزلة وإحسانًا القرض الذى يريدون ، وعجبنا لصنيع صاحب المؤسسة ، وظننا أنه يكره طالب القرض ، ويريد التضييق عليه حتى يترك العمل ، وبسؤال صاحب العمل أجاب أن هذا الموظف كبير فى السن وليست له امرأة ، وبحاجة إلى من يعينه على أمره ، وهو الآن يقيم فى دار ابنه المتزوج ، وقد منحنا الابن سكنًا به فسحة وسعة من أجل أبيه ، وصرحنا بما صرحنا به من قرض ليتمكن من تجهيز غرفة خاصة به ضمن سكن ولده ، ولو أعطيناه القرض الذى أراد لساعده ذلك على تجهيز سكن مستقل عن ولده ونحن لا نريد له ذلك لأنه كبير ، ووجوده مع ولده خير له ألف مرة من عيشه لحاله .

فانظر كيف ساء ظننا بصاحب العمل ، وبالبحث والتحرى تبين أنه لا يريد بما صنع إلا الخير على النحو الذى شرحنا .

ـ وقال عبيد بن عمير : بينما عمر بن الخطاب يمر فى الطريق فإذا هو برجل يكلم امرأة فعلاه بالدرة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنما هى امرأتى ، فقال له : فلم تقف مع زوجتك فى الطريق تعرضان المسلمين إلى غيبتكما ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، الآن قد دخلنا المدينة ونحن نتشاور أين ننزل، فدفع إليه الدرة، وقال : اقتص منى يا عبد الله، فقال : هى لك يا أمير المؤمنين ، فقال : خذ واقتص ، فقال بعد ثلاث : هى لله ، قال : الله لك فيها [١] .

ـ ومر رجل على النبى ﷺ فقال لرجل عنده جالس: «ما رأيك فى هذا ؟» فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حرى إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، فسكت رسول الله ﷺ، ثم مر رجل آخر، فقال له رسول الله: «ما رأيك فى هذا ؟ »

---

(١) الخبر أورده الشيخ على الطنطاوى فى : أخبار عمر ، نقلا عن المحب الطبرى .

فقال : يا رسول الله ، هذا رجل من فقراء المسلمين ، هذا حرى إن خطب ألا ينكح ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال ألا يسمع لقوله،فقال رسول اللهﷺ : « هذا خير من ملء الأرض مثل هذا »[١] .

ـ وقال رسول اللهﷺ : « لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى ابن مريم ، وصاحب جريج .

وكان جريج رجلا عابدًا فاتخذ صومعة فكان فيها ، فأتته أمه ، وهو يصلى ، فقالت : يا جريج ، فقال : يا رب ، أمى وصلاتى ، فأقبل على صلاته ، فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلى ، فقالت : يا جريج، فقال : أى رب ، أمى وصلاتى، فأقبل على صلاته، فلما كان من الغد أتته وهو يصلى ، فقالت : يا جريج، فقال : أى رب، أمى وصلاتى، فأقبل على صلاته، فقالت : اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات ، فتذاكر بنو إسرائيل جريجًا ، وعبادته ، وكانت امرأة بغى يتمثل بحسنها ، فقالت : إن شئتم لأفتننه ، فتعرضت له فلم يلتفت إليها ، فأتت راعيًا كان يأوى إلى صومعته ، فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت ، فلما ولدت قالت: هو من جريج، فأتوه فاستنزلوه، وهدموا صومعته ، وجعلوا يضربونه ، فقال: ما شأنكم ؟ قالوا: زنيت بهذه البغى فولدت منك، قال : أين الصبى ؟ فجاءوا به ، فقال: دعونى حتى أصلى، فصلى ، فلما انصرف أتى الصبى فطعن فى بطنه ، وقال : يا غلام ، من أبوك ؟ قال : فلان الراعى ، فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به ، وقالوا : نبنى لك صومعتك من ذهب ، قال : لا ، أعيدوها من طين كما كانت ، ففعلوا .

وبينما صبى يرضع من أمه فمر رجل راكب على دابة فارهة ، وشارة حسنة فقالت أمه : اللهم اجعل ابنى مثل هذا ، فترك الثدى ، وأقبل إليه ، فنظر إليه، فقال : اللهم لا تجعلنى مثله ، ثم أقبل على ثديه ، فجعل يرتضع » يقول راوى الحديث : فكأنى أنظر إلى رسول اللهﷺ وهو يحكى ارتضاعه بأصبعه السبابة فى فيه ، فجعل يمصها .

قال : « ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون : زنيت سرقت وهى تقول : حسبى الله ونعم الوكيل ، فقالت أمه : اللهم لا تجعل ابنى مثلها ، فترك الرضاع ، ونظر إليها ، وقال : اللهم اجعلنى مثلها .

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى : السنن : كتاب الزهد : باب فضل الفقراء ٢/ ١٣٧٩، ١٣٨٠ رقم (٤١٢٠) من حديث سهل بن سعد الساعدى ﷺ مرفوعًا بهذا اللفظ .

فهنالك تراجعا الحديث . فقالت : مر رجل حسن الهيئة فقلتُ : اللهم اجعل ابنى مثله، فقلتَ: اللهم لا تجعلنى مثله، ومروا بهذه الأمة، وهم يضربونها ويقولون: زنيت سرقت، فقلتُ : اللهم لا تجعل ابنى مثلها، فقلتَ : اللهم اجعلنى مثلها ؟ قال: إن ذلك الرجل كان جباراً . فقلتُ : اللهم لا تجعلنى مثله ، وإن هذه يقولون لها : زنيت ، ولم تزن ، وسرقت ولم تسرق فقلت : اللهم اجعلنى مثلها »[١] .

ـ وقال على رضي الله عنه : أكثروا على مارية أم إبراهيم فى قبطى ابن عم لها يزورها ويختلف إليها، فقال رسول الله ﷺ : « خذ السيف فانطلق فإن وجدته عندها فاقتله » قال: قلت: يا رسول الله، أكون فى أمرك إذا أرسلتنى كالسكة المحماة ، لا يثنينى شىء حتى أمضى لما أمرتنى به ، أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ؟ فقال رسول الله ﷺ : «بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب» فأقبلت متوشحًا السيف فوجدته عندها، فاخترطت السيف، فلما رآنى عرف أنى أريده، فأتى نخلة، فرقى فيها ثم رمى بنفسه على قفاه، ثم شال رجليه ، فإذا به أجب أمسح ، ماله مما للرجال لا قليل ، ولا كثير، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته ، فقال : « الحمد لله الذى صرف عنا أهل البيت »[٢] .

ـ ويحكى الدكتور نجيب الكيلانى فى كتابه : (المجتمع المريض ص ٨٣ ـ ٨٥) قصة سجين قتل زوجته لظن كاذب ، ثم ندم بعد فوات الأوان ، فيقول على لسان هذا السجين :

« كنت زوجًا سعيدًا أنعم ببيتى وزوجتى ، ولم أكن أرى الحياة إلا باسمة مزدهرة، وأنا بطبيعتى أقنع بالقليل ، وأومن بأن الرغيف الذى أحصل عليه هو كنز مقدر علىَّ أن أشكر الله عليه . . كنت سعيدًا بحق . . ومرت بى الأيام ناعمة هادئة . . ثم جاء اليوم الذى تعكر فيه صفو أحلامى التى كنت أحيا فيها، وذلك حين تناهى إلى سمعى شائعة خيانة زوجتى وأنا يا سيدى من أسيوط، ونحن هناك نرى الشرف أرفع بكثير من أن يمس ، ثارت ثائرتى، وخرجت من عملى مسرعًا إلى البيت ، وهناك رأيت زوجتى ومعها رجل كانا جالسين فى صورة لا تثير ريبة أو شك فى أن خيانة ما قد وقعت ولكنى لم أكن أعرف الرجل ، بل إننى لم أره من قبل ، وكنت حين دخولى أعانى ثورة نفسية عاتية وفى اضطراب شديد .

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب الأنبياء : باب قول الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ ٤/ ٢٠١، ٢٠٢، ومسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة والآداب : باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة ، وغيرها ٤/ ١٩٧٦ ـ ١٩٧٨ رقم (٢٥٥٠)، وأحمد فى : المسند ٢/ ٣٠٧، ٣٠٨، كلهم من حديث أبى هريرة مرفوعًا ، واللفظ لمسلم .

(٢) الحديث أورده الحافظ ابن كثير فى : السيرة النبوية ٤/ ٦٠٠ .

سألت الرجل من يكون ؟ فارتبك وتلعثم ولم يحر جوابًا ، ونظرت إلى امرأتى فرأيت فى عينها خوفًا مريعًا ، فجن جنونى وشعرت بدمائى الساخنة تنطلق إلى رأسى، وتركت فى نفسى مشاعر عديدة من الشعور بالخيانة والرغبة فى الانتقام من هذه المرأة التى أدخلتها قلبى وأطلعتها على سرى ، فقد كان بيننا عهود.

أحسست بكل هذه المشاعر تموج بين جوانحى فى لحظات سراع ثم راحت تتلاشى رويدًا رويدًا إلا شعورًا واحدًا كئيبًا سيطر على خيالى فى إصرار ، كان هذا الشعور بأنى مغفل ، نعم مغفل .

ورأيت ذلك السكين على المائدة ، وكانت زوجتى فى أقصى حالات الرعب وكنت أنا ثائرًا أصرخ ، وأهدد وأقترب منها ولففت ذراعى حول ظهرها ثم ذبحتها ذبح الخراف من غير أن تنبس ببنت شفة ، ولكنى سمعت عشيقها يرجونى بصوت متحشرج ألا أقتلها ثم غمغم بكلمات كثيرة لم أفهم منها شيئًا ، ولكنى أجهزت عليها تمامًا ، واتجهت إليه ولم يكن مصيره إلا مصير زوجتى .

كان هذا الرجل الذى وجدته مع امرأتى يقطن فى قرية مجاورة ويدعونه الشيخ محمود ، وكان الناس يتبركون به ويلجئون إليه فى الملمات ، ودعته زوجتى إلى البيت مرات عديدة لأنها كانت لا تخرج مطلقًا ، دعته ليبرئها من العقم ويدعو لها أسياد السموات والأرض لينقذوها من هذه الأزمة ، ولم يكن الذنب ذنبها يا سيدى بل ذنبى أنا ، أنا كنت ألومها لأنها لم تنجب لى ابنًا يرث قوتى ووجودى . . ثم عرفت أنها بريئة من كل خيانة ، وأن الشيخ محمود كان من الأتقياء الصالحين ، سيدى أنا معذب فليرحمنى الله » .

خامسًا : علاج سوء الظن :

وما دمنا قد وقفنا على حقيقة سوء الظن، وأسبابه، وآثاره، فإن العلاج معروف، ويمكن تلخيصه فى الخطوات التالية :

١ ـ بناء العقيدة السليمة القائمة على تحسين الظن بالله ، وبرسوله وبالمؤمنين الصالحين ، فإن هذه العقيدة تحرسنا أن نظن ظن السوء بالآخرين من غير مبرر ، ولا مقتضى ، وحتى لو كان فإننا نبادر بالتوبة والرجوع إلى الله تبارك وتعالى .

٢ ـ التربية على تغذية هذه العقيدة بما يثبتها فى النفس وينميها ، وذلك بترك المعاصى والسيئات والمواظبة على فعل الطاعات وأعمال البر ، فإن التربية بهذه الصورة تجعلنا نتورع أن نقع فى سوء الظن بمن ليس له أهلا ، وإن وقعنا فالتوبة والندم .

٣ ـ التنشئة على الالتزام بآداب الإسلام فى الحكم على الأشياء والأشخاص من : الاعتماد على الظاهر وترك السرائر إلى الله وحده الذى يعلم السر وأخفى ، ومن طلب الدليل والبرهان ، ومحض ذلك الدليل وهذا البرهان ، بل والتأكد من عدم تعارض وتضارب الأدلة مع بعضها البعض ، فإن التنشئة بهذه الصورة تحرس الإنسان من التورط فى سوء الظن بغير مبرر ولا موجب .

٤ ـ التنشئة على الالتزام بآداب الإسلام فى النجوى من عدم تناجى اثنين فما فوقهما دون الآخر حتى يوجد معه من يناجيه أو يختلط الجميع بالناس ، ومن كون هذه النجوى فى الطاعة والمعروف دون المعصية والمنكر ، ومن كونها فى أمر مهم لا يصح أن يقضى فيه إلا بعيداً عن سمع وبصر المرجفين ، والمفسدين فى الأرض .

٥ ـ تجنب الوقوع فى الشبهات ثم الحرص على دفع هذه الشبهات إن وقعت خطأ أو عن غير قصد ، وقد مرت بنا قصته ﷺ مع الأنصاريين ، حين كان يودع أم المؤمنين صفية، وهو معتكف ، وأسرعا السير واستوقفهما قائلا: « إنها صفية بنت حيى »[(١)] .

وقاس العلماء على ذلك عدة صور فقالوا :

ـ إذا كنت فى خلوة مع محرم لك ، أو مع أهلك ، ورآك الغير الذى تخشى عليه الشيطان ، وجب أن تقول له : هذه أهلى كيلا تعين عليه الشيطان.

ـ وإذا كنت قد صليت فى بيتك، ثم جئت المسجد، فوجدت الناس يصلون فصل معهم وتكون الصلاة الثانية نافلة لك ؛ لئلا يتخذ الناس قعودك وهم يصلون ذريعة لإساءة الظن بك وأنك لست من المصلين . جاء فى الحديث : عن جابر بن يزيد بن الأسود عن أبيه أنه صلى مع رسول الله ﷺ وهو غلام شاب ، فلما صلى إذا رجلان لم يصليا فى ناحية المسجد فدعا بهما فجيء بهما ترعد فرائصهما فقال: « ما منعكما أن تصليا معنا » ، قالا : قد صلينا فى رحالنا ، فقال : « لا تفعلوا ، إذا صلى أحدكم فى رحله ثم أدرك الإمام ، ولم يصل فليصل معه فإنها له نافلة »[(٢)] .

---

(١) الحديث سبق تخريجه ص ٢٠ .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الصلاة : باب فيمن صلى فى منزله ثم أدرك الجماعة فصلى معهم ١/ ١٥٧ رقم (٥٧٥) ، والترمذى فى : السنن : كتاب الصلاة : باب ما جاء فى الرجل يصلى وحده ، ثم يدرك الجماعة ١/ ٤٢٤ ـ ٤٢٦ رقم (٢١٩) . وعقب عليه بقوله: «حديث يزيد بن الأسود حديث حسن صحيح ». والنسائى فى: السنن: كتاب الإمامة: باب إعادة الفجر مع الجماعة لمن صلى وحده ٢/ ١١٢، ١١٣ رقم (٨٥٨)، والدارمى فى : السنن : كتاب الصلاة : باب إعادة الصلوات فى الجماعة بعد ما صلى فى بيته ١/ ٣١٧، ٣١٨، وأحمد فى : المسند ٤/ ١٦٠، ١٦١ كلهم من حديث يزيد بن الأسود رضي الله عنه مرفوعًا .

والفرائص ـ كما فى النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣/ ١٩٣ ـ : جمع فريصة ، وهى =

وأمثلة البعد عن مواطن التهم فى الإسلام كثيرة جدًا ، غاية ما فى الأمر أنه يجب أن يكون هذا المعنى آكد ، وأشد فى حق العلماء والمربين ؛ لأنهم أسوة وقدوة لغيرهم من الناس ، وأى سلوك أو تصرف محسوب عليهم .

يقول ابن دقيق العيد : « وهذا ـ أى التحرز من كل ما يوقع فى التهم ـ متأكد فى حق العلماء ومن يقتدى بهم ، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلا يوجب سوء الظن بهم، وإن كان لهم فيه مخلص ؛ لأن ذلك سبب إلى إبطال الانتفاع بعلمهم ، وقد قالوا : إنه ينبغى للحاكم أن يبين وجه الحكم للمحكوم عليه إذا خفى عليه ، وهو من باب نفى التهمة بالنسبة إلى الجور فى الحكم » (١) .

٦ ـ الحرص على سلامة البيئة ، ولا سيما فى مجتمع الأصدقاء ، فإن ذلك له دور كبير فى علاج سوء الظن وحماية النفس من أن تتورط فيه من جديد .

٧ ـ مجاهدة النفس وقمع الهوى والشهوات، حتى تعرف النفس أنه ليس من السهل توجيه تهمة لأحد من الناس لمجرد ظن أو تخمين لا دليل عليه ولا برهان ، وما فى الدنيا شىء أعظم من أن يكون هوانا تبعًا لما جاء به رسول الله ﷺ حيث يقول سبحانه : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

٨ ـ معاملة التائبين من الناس بحاضرهم لا بماضيهم ، وإذا كان الملك الذى أساء هؤلاء وأجرموا فى حقه قد تجاوز وعفا فنحن فى التجاوز والعفو أولى وأحق ، ولاسيما ونحن فى المعاصى مثلهم وربما أشد .

٩ ـ دوام النظر فى كتب السيرة والتاريخ ، ولاسيما تاريخ المسلمين ، فإنها مليئة بصور حية عن الظن السيئ وآثاره وطريق الخلاص منه ، بحيث يسهل على النفس التخلص من هذا الداء .

١٠ ـ التذكير الدائم بعواقب سوء الظن فى الدنيا والآخرة، وعلى الفرد، والجماعة، فإن الإنسان كثيرًا ما ينسى، وعلاج هذا النسيان بالتذكير ، كما قال سبحانه: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات]، ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ [الأعلى] .

= اللحمة التى بين الجنب والكتف تهتز عند الفزع . والرعدة ـ كما فى النهاية أيضًا ٢/ ٨٧ ـ الرجفة ، والاضطراب من الخوف .

(١) انظر : إحكام الأحكام ٢/ ٥٧، وعنه نقل ابن حجر فى : فتح البارى ٤/ ٢٨٠ .